على عهد الامير

لماذا ؟

رواية لبنانية تاريخية

بقلم فؤاد افرام البستاني

وقد يكون من الابناء ضحايا في سبيل آبائهم
من حيث لا يعلمون

الفصل الحادي عشر

عرس غريبين (تابع)

— ضع عشرة اكياس في الخزينة الداخلية ! وهيئ خمسين كيساً ترسلها للسلطان سليم في الشهر المقبل . وخبئ خمسين كيساً في القبو الأسفل . واترك عشرين كيساً للنفقات .

— ولكن الواردات لا تكفي يا مولاي . فهي لا تبلغ ، بعد طرح النفقات ، سوى الثمانين كيساً .

ففكر الجزّار قليلاً ثم قال بصوت بدأ التهدّج يظهر فيه :

— وكم ارسل ابنا الامير يوسف ؟

— لم يرسلا شيئاً الى الآن ، بل وعدا بدفع خمسين كيساً .

فاحتدم الجزّار والقى ماسورته صائحاً :

— وعدا ! وعدا ! مواعيد ، مواعيد . ذاك يعدني كثيراً ! وهذان يعداني اكثر والنتيجة ؟ لا شيء ! أوَلا ازال العوبةً في يد اللبنانيين يهزأون بي كيف شاؤوا ، ومتى شاؤوا ؟ . . . عندي ثلاث مقاطعات لا تنفكّ ترسل اليّ محتوياتها : فقاطعة صفد تمدّني فضةً وذهباً ، وجبل نابلس يمدّني رصاصاً وبارودًا ، وجبل لبنان يمدّني كذباً ونفاقاً ! . . .

ثم سكت ، فاحترم حاييم سكوته .

عند ذاك دخل اكبر حجابه ، سليم آغا ، وقال:

– الشيخ غانم بالباب يستأذن بمواجهة مولاي !

فاطرق الجزّار مدة ثم قال :

– كذبة جديدة ايضاً . ادخله لنرى ما يحمل

ثم مسح لحيته ، ونفض ماسورته ، والقى نظره على الباب . فتقدّم غانم بكل لطف ، وقبّل يده ، وقال:

– ليعذرني مولاي على ازعاجي خاطره في مثل هذه الساعة . ولكني جئت اؤدّي رسالة من ولده الامير بشير ، ولم اشأ ان اتأخر في ذلك.

فهزّ المولى رأسه وقال ببرودة :

– وما هي تلك الرسالة المهمة ؟

فاومأ غانم الى فرحات الذي كان لا يزال امام الباب ، فتقدم حاملاً الكيسين . فتناولهما غانم وقدّمهما الى الجزّار قائلاً :

– هي هذا المبلغ الزهيد ... خمسون كيساً لا غير ارسلها الامير خدمة بسيطة ، راجياً من الطافكم ان لا تعتبروها على الحساب ، بل على سبيل هدية صغيرة على قدره لا على قدر سعادتكم . اما ما بقي لسعادتكم في ذمته من المال ، فيتشرّف بارساله ، ان شاء الله ، في القريب العاجل.

كانت العاصفة الليلية قد انتهت قبيل الفجر بسرعة عجيبة وعقبها هدوء تامّ فبدا البحر صافياً كالزيت ، كما يقول البحّارة ، والهواء ساكناً لا يحرّك شجراً ولا يثير غباراً. وقد يكون في الطبيعة مثل هذا الانتقال المفاجئ ... اما عاصفة الجزّار فكانت اقصر مدة ايضاً ، وتبعها هدوء وسكون غريبان . فمن الحنق والازباد انقلب الى الدعة والتسكون ، ومن بُركتي دم تفوران غضباً وحقداً تحوّلت عيناه الى مرآتين تلمعان صفاء ولطفاً . كل ذلك مفعول الخمسين كيساً ... فتناولها جذلاً ، وقذف بها حاييم الذي كان لا يزال مطرقاً يرتجف ، منتظراً بين لحظة واخرى امراً بقطع يده او رجله ، بعد ان صام الجزّار اذنه ، وجدع أنفه ؛ ثم قهقه قائلاً:

— هذا مطلوبك ! قم الى لعنة الله !

فتشدّد حاييم وقبّل يد مولاه . ثم حمل المال وخرج ، وعلى شفتيه ابتسامة من شاهد ملك الموت على خطوة منه ، وافلت من براثينه .

امّا الجزّار فاشار الى غانم بالجلوس ، فجلس وهو يفكر في اسلوب يكلّم به المولى عن ابني الامير يوسف . ثم امر له بالقهوة ، والماسورة يدخنها في كشكه الخاصّ . والتفت اليه بعطف فقال :

— هدية ولدنا الامير بشير مقبولة دائماً . فبلّغه دعاءنا بنجاحه الدائم ، وبلّغه ايضاً ان لا صحة لما سمعه عن اني طلبت ابني الامير يوسف . . .

فبهت غانم من هذه المفاجأة غير المنتظرة ، واراد ان يظهر الاحتجاج . فرفع الجزّار يده مشيراً بالصمت ، وتابع :

— اذاً بلّغه ان لا صحة لما سمعه من اني طلبت ابني الامير يوسف . لاني لا اريد حاكماً على الجبل الّا الأمير بشير . امّا خروج الاميرين مع كاخيتهما من دمشق فكان المقصود منه ملاقاة عبدالله باشا القادم من الحجّ . فاشرح له كل هذا وطمئنه . ثم قلْ له ان لا يتأخر بتقديم ما لنا عليه من المال .

فوقف غانم شاكراً للجزّار نعمه العديدة ، ومكرّراً مواعيد الأمير . ثم رأى من الموافق عدم اطالة تلك المقابلة . فقبل يد المولى واستأذنه بالانصراف .

وعند وصوله الى البيت ، اجاب الاميرَ حالاً بتفصيل كل ما جرى ، وهو ذاهل لما تحققه من قوة فراسة الجزّار ومقدرته على ضبط الامور ومعرفة خفايا الضمائر ، مع شدّة حرصه على المال .

الفصل الثاني عشر

تحت اسوار عكا

انقضت سنة جديدة من حياة غانم في عكا ، والامير بشير لا يزال يماطل في دفع الميري ، والجزّار لا يزال يماطل من جهته في اطلاق سراح الرهينة ، وابنا الامير يوسف ومدبّرهما لا يزالون في نواحي عكا يترقّبون الفرص لاستمالة الباشا والحصول على الامر بعزل الامير بشير . امّا غانم فكانت الغربة قد عزّزت فيه حبّ العزلة والانفراد ، وكان له في داخل عائلته ما يصرفه عن طلب التسليات الخارجية ، فغدا لا يهتمّ الّا بولديه يصرف في ملاعبتهما معظم نهاره ، ويقضي الباقي في محادثة مصطفى آغا . فيطلعه هذا على المهمّ من الحوادث والاخبار ، ويوفّر عليه مؤونة الجولان في القلعة ، والاستهداف لنظر الجزّار ، والتعرّض للالتقاء ببعض اللبنانيين من الحزب المعاكس ، وقد اصبحوا كثيرًا في اروقة السراي يذهبون ويجيئون منتظرين قرار المولى بفوزهم على الامير . كل ذلك كان يطّلع عليه غانم وهو في منزله ، فيبعث به الى اميره طالبًا اليه التعجيل في ارسال امر ال « الميري » تلافيًا لما قد يفاجئ من بوادر الجزّار ، واملًا بان هذا يطلق سبيله ، اذا ما تأكد وفاء الامير بوعوده . فيطير بامرأته وولديه الى مسقط رأسه ، ويخدم اميره في بلاد اجداده .

على ان هذا الأمل كان يتضاءل شيئًا فشيئًا لما كان يخشاه من قرب انقلاب الجزّار على الامير ، فييأس من الخلاص ، ويتعزّى بالانزواء في البيت يداعب ولديه ويفرّج الهموم عن صدر بدور ، فلا يخرج الّا لأمر مهمّ .

وبينما هو صباح احد الايام ذاهبًا لشراء بعض الحوائج من خان الافرنج ، رأى جمعًا غفيرًا يتجمهرون حول السراي ، فتطاول اعناق البعض نحو الحائط قرب الرتاج ، ويلفظ البعض الآخر صاخبين ، ويرجع غيرهم منكسي الرؤوس شاحبي الالوان . فاستغرب هذا المظهر غير المألوف ، وظنّ اولًا ان الجزّار اصدر امرًا جديدًا بتكثير الضرائب او بحجز الاموال ، او بعقاب بعض مناوئيه . لكنه لم يقترب من الرتاج حتى تحوّل استغرابه الى ذهول ملك عليه طرق

تفكيره ، اذ رأى منشوراً كُتب بحرف ديواني كبير ، وصُدّر برسم الطغراء السلطانية ؛ فقرأ فيه ما يلي :

فرمان
الى سائر البلدان
من السلطان سليم غازي

« بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله ربّ العالمين . والصلاة والسلام على سيد المرسلين . وعلى آله وصحبه اجمعين . امّا بعد يا جماعة الموحّدين . وملّة المسلمين . اعلموا ان الطائفة الفرنساوية جعل الله تعالى ديارهم دارسة . واعلامهم ناكسة . وهم الكفرة الطغاة . والفجرة البغاة . لا يؤمنون بوحدانية ربّ السماء والارض ولا برسالة الشفيع يوم العرض . قد هجموا على اخذ الاسكندرية ومصر القاهرة وما يليها . ومرادهم الاستيلاء على يافا وغزة والرملة وتوابعهم . وعلى عزمهم الفاسد الخايب الخير صايب ولا مصيب تدمير امة المسلمين الموحدين . بوحدانية ربّ العالمين مقرّين . وبرسالة رسوله معترفين . فهذا قصد الفرنساوية من الحادهم ومكرهم . وشرّهم وكفرهم . فكيف لا يكون فرضاً لازماً على كل واحد من المسلمين . فيا غزاة الموحّدين . ويا ابطال الحرب والضرب . ويا رجال الغزو والنهب . ويا اراكن الشريعة المحمدية . وقواعد الملة الحنفيّة . بل يا كل المسلمين المؤمنين بالله تعالى وبرسوله مقرين . القوا الهمّة المحمدية لحرب هذه الملة الفرنساوية لان في زعمهم ان زمرة الموحّدين كالكفرة الذين حاربوهم وحوّلوهم الى اعتقادهم . ولم يعلموا الملاعين ان الاسلام مغروس بقلبنا . والايمان ممزوج بدمنا . اكفراً بعد ايمان . وضلالاً بعد هديان . كلا ورب السماء والارض . فكونوا متفقين على تقوية الدين المبين . وعلى حذر من الكافرين . ولتكن سيوفكم بارقة . وسهامكم راشقة . واسنتكم متلاحقة . ونبالكم في ابدانهم متسابقة . والفرسان تجول بحومة الميدان . وتلقي الكفرة في النيران . ونحن من طرف السلطنة السنيّة . اشهرنا الامور العلية . في جميع العساكر والاجناد . وعلى ساير البلاد . بحول الله وقوّته .

وعظيم قدرته . عن قريب تجتمع كل العساكر وافره . وجنود متكاثره . وسفن كالجبال تمشي بقدرة الملك المتعال ذو الجلال . ومدافع كالرعد القاصف . والبرق الخاطف . وشجعان لا يبالون بالموت حبًا في دين الله . واقتضى حيث وجود صداقة صدوقة محبة معروف سيادة المحب الصادق الصدوق . والخل الموافق الوثوق . اجل الاحباب . وسمهري الانساب . سعادة اخينا المحترم . سلطان الانكليز المفخم . المعتمد معنا بالارتباط سوية . على تدمير الملة الفرنساوية . ولعزيز مكارمه . ووفور مراحمه . اقتضى وجاد . بجوده في الوداد . وسيّر من فيض مكارمه ساري عسكر ثم ومن لدننا ساري عسكر لعمارة العثمانية . وكائنة المراكب البحرية . افتخار الامراء الكرام في الطايفة المسيحية . وعظيم الكبرا الفخام في الملة العيسوية . مصلح مصالح جماهير الامة النصرانية . جناب محبنا السينيور بلمام سند سميت المكرّم بالتفويض الخاقاني . مشير مطلق . مشيّد موفق . ناظم ومنظم . قطب تلك الديار . بوجه المناظرة والاعتبار . فليعلم كل منكم تفويض محبته بالالتفات من لدننا من سائر الجهات . فمهما مرّ عليكم من مراكبه ومن اتباعه فيّروا له الاكرام الزائد . والانعام الوافر . وليعلم الخاص والعام . زود صداقته مع الاسلام . والاعانة لنا منه على الدوام . على تدمير الفرنساوية التام . تعلموا ذلك وتعتمدوه والسلام .»

حرر في صفر ١٢١٣

قرأ غانم الفرمان ذاهلًا لتلك المفاجأة ، مراجعاً مقاطع المنشور كي يتحقق صحة ما يبدو امام عينيه ، حتى اذا ثاب اليه رشده ، تناوبته الخواطر المختلفة وكلها تراوح بين الامل والايجاس . كان يؤمل خيرًا بقدوم الفرنساويين ، الذين كثيرًا ما سمع عن صفاتهم الطيبة ومحبتهم للبنان واهله ، فيرجو ان يخلصوه ، ووطنه ، من ظلم الجزّار . ولكنه كان يوجس خيفةً من انتقام هذا الظالم اذا شعر بوصول الفرنساويين ، ولا شيء يمنعه ان يقتل المسيحيين جميعهم تشفيًا من الافرنج . ثم انتقلت به الافكار فجأة الى بلاط دير القمر ، فجعل يفكر بما عسى يكون موقف الامير بشير من هذا الأمر ، وهو يميل الى الافرنج كل الميل ، ولكن لا يمكنه ان يعصي اوامر وليّه ، ولهذا عليه

المال الوافر ، وبين يديه الرهائن الثمينة . وهنا ضاق صدر غانم ، فادار طرفه الى الجبال البعيدة يبحث في ما وراءها عن مقرّ بلده ، نادماً على معاكسته آراء فرحات في الهرب ، متأسفاً على انه لم يتخلّص مع بدور من مخالب الجزّار .

ثم اشتدّت تصوّراته ، فتجسّمت اوهامه ، حتى خيل اليه انه يرى الفرنساويين ، وقد حلّوا ارض عكا ، يضربون النطاق حول القلعة ، فيحصرون من فيها ، ويرمون اسوارها بكلل مدافعهم الضخمة ، ورصاصهم المتتابع ، فتفتح لهم الابواب ويدخلون ظافرين ... وبلغ الفرح من غانم مبلغاً استفزّه فجعل يهنئ نفسه بانتصار الافرنج ، بانياً من الآمال صروحاً شامخة ، طامحاً الى اقصى درجات السعادة والهناء ، مسرّحاً نظرًا مغتبطاً في اطراف تلك القلعة وقد صارت ، في وهمه ، ملك الفرنساويين فطهروها من آثار الظلم والفساد ... ولكن لم يقع بصره على ضخامة تلك الجدران ، حتى عادت به الذكرى الى اربع سنوات خلت ، فرأى ذاته مع بعض اللبنانيين يقودهم علي آغا تحت تلك الاسوار ، فيطلعهم على منعتها ، ويشرح لهم ما بذله الجزّار في سبيل اعادة بنائها ، ويسأله غانم عن القصد من كل ذلك ، فيجيب بكلمات ظهرت في ذاكرة غانم بحرفيّتها كنبوّة قد قرب زمن تحقيقها :

— « من يدري ما يقوده الينا الزمان مما لعلّه يُظهر منفعة هذه الاسوار . وما ادراك ما سيكون لمنعتها من التأثير في مستقبل الاحوال . قد تنفع المولى في اشدّ أزماته ، وقد تغيّر مجرى كثير من المقاصد والمطامح ... »

نعم لقد تُغيّر مجرى كثير من المقاصد والمطامح ... وقد بدأت النبوّة تتحقق من تلك الدقيقة ، فغيّرت هذه الذكرى مجرى افكار غانم من أمل استفزّه فرحاً غير معقول الى يأس مظلم تجلبب بخوف ، فكاد يدفعه الى الاشمئزاز من الحياة ، لولا ذكره لامرأته وولديه . على انه شاء التخلّص من تلك الاوهام ، فابتعد عن القلعة تاركاً للزمن ان يبتّ في حقيقة النبوّة ، وقصد خان الافرنج ليشتري ما طلبته بدور من الحرائج .

وكان ، في الطريق ، يرهف اذنيه عن غير قصد ليتسقّط ما يُقال عن مجيء الافرنج . فكان يسمع البعض يردّدون تعابير الفرمان ، خائفين من

اعلان الجهاد وما يجرّه من البلايا على التجار والمزارعين وسائر ارباب المصالح . فيجاريهم البعض الآخر هازئين بقوّة الجيش العثماني ، متأكدين انتصار الفرنساويين ودخولهم عكا . فيستدرك غيرهم زاعمين ان الانكليز مع السلطان ، ومتى قدم الانكليز الى عكا فانهم يحمونهما من الانس والجان ، لان قوّادهم لا يُقاوَمون ، ومراكبهم لا تُقلب . . .

بين هذه الاقاويل المتناقضة ، قطع غانم معظم السوق حتى وصل الى خان الافرنج ، فالتقى بالاب توما ، وعلى هيئته إمارات العجلة والاهتمام ، فاستوقفه مسلماً . فقال الاب :

— كنت ذاهباً لاودّعكم في البيت . . . الحالة في منتهى الخراجة ، وقد اصدر الجزّار امراً بطرد جميع المسيحيين من عكا . . . والظاهر انه شديد الخوف من الفرنساويين ، ويخشى ان يثور عليه النصارى ، اذا ما قرب ابناء دينهم من المدينة .

— يطردكم هكذا ! واين تذهبون ؟

— نذهب الآن الى الجبل او الى صيدا . على ان الجبل آمن لنا اذ لا يبعد ان يصدر امره بعد ايام بطردنا من صيدا ايضاً ، بل ومن سائر المدن البحرية . . .

— أوَلا تظنّ انه يأمر بطردي انا ايضاً ؟ فاسرع معكم الى بلادي ونقيم في لبنان اعزّاء مكرّمين ؟؟؟

فهزّ الاب توما رأسه ، وقال :

— لا اخال ذلك ممكناً . فليس الجزّار من النباوة بان يترك تفلت من يده ، وهو لم يستوفِ بعد اموال الميري من الامير . وعلى فرض انه استوفى ذلك ، فلا إخاله يتركك في هذه الظروف ، وهو غير امين من اميرك الى اية جهة يميل في هذه الحرب المقبلة ، وجيش اية فريق يساعد . . . أوَ لم تعلم شيئاً بهذا الخصوص ؟

— قطعاً ! بل انني لم اعرف بقدوم الفرنساوية الّا هذا الصباح !

— عجيب ! فقد شاع الخبر منذ ايام . وعلّق « فرمان الجهاد » صباح البارح ولا بدّ ان يكون عند الامير بشير معلومات ثمينة عن هذه الحركة قد يبعث

بها اليك فتفيدك في موقفك الجديد.

— هلمّ اذاً الى منزلي ، فتودّع بدور وتبارك الصغيرين ! ونرى هل جاءنا فرحات بشيء جديد...

بعد نصف ساعة ، كان فرحات يمسح عرقه ، ويقصّ على غانم وبدور والاب توما ان الامير بشيراً عزف بعزم الفرنساوية على مهاجمة مدن الساحل ، وانه ارسل الى مصر المعلم نقولا الترك ليطّلع على قوى الجيش ويعلمه بتاريخ زحفه على عكا. واخبرهم ان نصارى لبنان جميعهم ينتظرون بفروغ صبر وصول بونابرتي ، وقد اخذوا يستعدّون لملاقاته بالمؤن والذخائر ، وللانخراط في عسكره اذا سمح لهم الامير . اما الدروز فقد ملك الرعب قلوبهم ، وبعد المخابرات العديدة ، اجتمعوا في اعبيه ، وتحالفوا في مقام الامير السيد علي على مقاومة الفرنساوية ، والخروج على الامير اذا انحاز اليهم. ولكن الشيخ عبدالله القاضي البيصوري اعترض المشايخ في قرارهم هذا ، وافهمهم انه لا سبيل الى مقاومة الامير . فسرّ الامير باعتراضه ، ورضي عنه ، واطلق له التصرّف بعقاراته.

فقاطعه الاب توما سائلاً ؟

— أوَ يقبلنا الامير في بلاده ؟

فقال غانم :

— بكل طيبة خاطر ! على اني ارجو منكم ان تؤخروا سفركم الى صباح الغد . وربما اكون جمعت بعض المعلومات عن عزم الجزّار ، فاكلف حضرتكم ايصالها الى الامير ، وتسيرون مع فرحات فيكون لكم دليلاً اميناً.

وقبل الفجر الاول كان فريق من مسيحيي عكا يقطعون حدود المدينة الى الجبل ، يتقدّمهم فرحات والاب توما ، وقد حمله غانم كتاب توصية للامير اخبره فيه بمهمتهم ، واطلعه خصوصاً على ان الموقف في عكا حرجٌ للغاية ، وان الجميع يخافون من وصول الافرنج ، وان الجزّار يزداد إعراضاً عن الامير وميلاً الى الحزب المعاكس الذي يتكاثر عدد اعضائه في بلاطه يوماً فيوماً. وانه ، اذا ولّى ابني الامير يوسف ، فلا يمكنه تعزيزهما بالعسكر لما هو فيه من الاستعداد لمقاومة بونابرتي . فوالحالة هذه ، تؤول تولية الاميرَين لخير الامير بشير وحده ،

لانهما لا يمكنهما دخول لبنان لعدم مساعدة عسكر الجزّار ، ثم ينفسح المجال للامير بشير لرفض مطالب الجزّار ، اذا طلب منه المساعدة على الافرنج ، بحجة ان اهل الجبل لا يطيعونه بعد ان بلغهم تولية ابني الامير يوسف. فكان هذا الرأي دالاً على دهاء غانم ، واضطلاعه ، على صغر سنه ، بفنون الملاحكات وملاوي السياسة.

ولم يتعالَ النهار حتى رجع فرحات وعلى وجهه امارات الذعر ، فبغت غانم والتفت اليه مستفهماً ، فقال :

— التقينا على ساعة من عكا بشرذمة من عساكر الجزّار ، فارقفونا واخذوا يفتشوننا واحداً واحداً.

فاضطرب غانم وقال : والمكتوب ؟

— لم يطّلعوا عليه لان بونا توما كان قد خبّأه في بطانة جبّته...

— الحمد لله ! وانت ؟

— لقد ارجعوني الى هنا بحجة اني لبناني ، والجزّار لم يسمح للبنانيين بالخروج ، بل طرد المسيحيين من سكان عكا.

فاطرق غانم قليلاً ثم قال :

— لنا نصيب بك ، فادخل ولا تكره شراً لعله خير...

* ٥ *

مرّ شهر على تلك الحال ، وغانم حائر في ما سيكون من اوامر والي عكا بشأنه وشأن اميره ، والاشاعات عن الجيش الفرنساوي تصل متقاطعة متناقضة ، فمن قائل ان الافرنج مكسورون في بلاد مصر ، ومن زاعم انهم قادمون بالعسكر الى فلسطين ، والجزّار لا يزداد الّا اندفاعاً في التحصين والتسليح ، فأعلى الاسوار ، وزاد عدد الحامية ، وارسل فاحتلّ العريش على حدود مصر ، وحصّن يافا والرملة وحيفا ، وطرد المسيحيين من جميع المدن الساحلية.

وكان آخر مساويه ، في نظر غانم ، انه اتّهم الامير بشير بالاتحاد مع الفرنساوية ، بعد ان اخبره الشيخ جرجس باز بذهاب المعلّم نقولا الترك الى مصر ، فغضب واصدر امراً بعزل الأمير وبتعيين ابني الامير يوسف مكانه . ولكنه

اوقف تسييرهما الى الجبل لعدم توفر العساكر لديه في تلك الظروف الحرجة . فتمّ ما تنبأ به غانم ، واصبح ينتظر حلول غضب الجزّار عليه وعلى عائلته.

ولم يطل به الانتظار ؛ فاتاه ، في اوائل سنة ١٧٩٩ ، عبدالله آغا موفداً ، من قبل الجزّار ، يبلغه قرار مولاه باسترجاع امر الحريّة والاذن بالجولان الذي منحه اياه سابقاً ، وبوجوب نقله الى القلعة.

فلم يسع غانم الّا الامتثال ، فودّع مصطفى آغا ، وانتقل باسرأته وولديه وفرحات الى غرفتين حقيرتين في الجانح الايسر من القلعة ، لا منفـذ لهما الّا الباب يفتح على دهليز مظلم ، ونافذة تطلّ على البحر من علوّ شاهق.

وفي ليل السابع عشر من آذار ١٧٩٩ ، افاق اهل عكا مذعورين لدويّ المدافع المتتابعة ، فجعلوا يهجرون اطراف المدينة ملتفّين جميعهم حول السراي ، غير مبالين بما يتركون من أرض او منازل او مال ؛ ولا صوت يسمع في ذاك الليل سوى : وصل الافرنج !!!

امّا الجزّار فكأنّ قرب الخطر عزّز فيه عاطفة المقاومة ، فأحيا مـا بقي من الليل يتفقّد الاسوار ، ويلقي الاوامر المشدّدة باحكام الاقفال ، والدفاع حتى النهاية ، مهدّئاً الخواطر ، مكرّراً ان المؤونـة لن تفرغ لأن الانكليز يتكلّفون اعاشة المحاصرين من البحر ، وان الأسوار منيعة لن تؤثّر فيها مدافع الافرنج الجبليّة ، فضلاً عن ان في ابراجها مدافع قويّة ايضاً كان غنمها الانكليز من احد المراكب الفرنسوية.

وقد ازداد موقف الجزّار منعـة بعد الثامن والعشرين من آذار ، اذ قام الفرنسويون باول هجوم على القلعة فارتدّوا خائبين بعد عراك شديد . فاراد الجزّار ان يثأر منهم ، فطلب جميع من كان في سجنه من المسيحيين واصدر الاوامر بشنقهم . فنفّذت حالاً على مرأى من فرحات الذي كان محتبئاً في احد الابراج . فأسرع يعلم مولاه غانماً ، وكان قد حُظر عليه الخروج منذ وصول الفرنساويين . فخافت بدور كل خوف ، وجعل غانم ينتظر وصول الدور اليه بين ليلة وضحاها . على انه كان يدفـع الاسى بتقبيل صغيريه ، فكانت كل بسمة من ثغريهما اللطيفين بارق أمل في ذاك الجوّ المدلهمّ بالخطوب والرزايا . . . (لها بقية)